أعراس فاس

العادات الشعبية

د. عبد الهادي التازي

الكتاب: أعراس فاس (عادات شعبية)

الكاتب: عبد الهادي التازي

الطبعة: ٢٠١٦

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر. الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ – ٣٥٨٦٧٥٧٦ – ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.apatop.com **E-mail: news@apatop.com**

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

التازي ، عبد الهادي

أعراس فاس – عبد الهادي التازي- الجيزة – وكالة الصحافة العربية

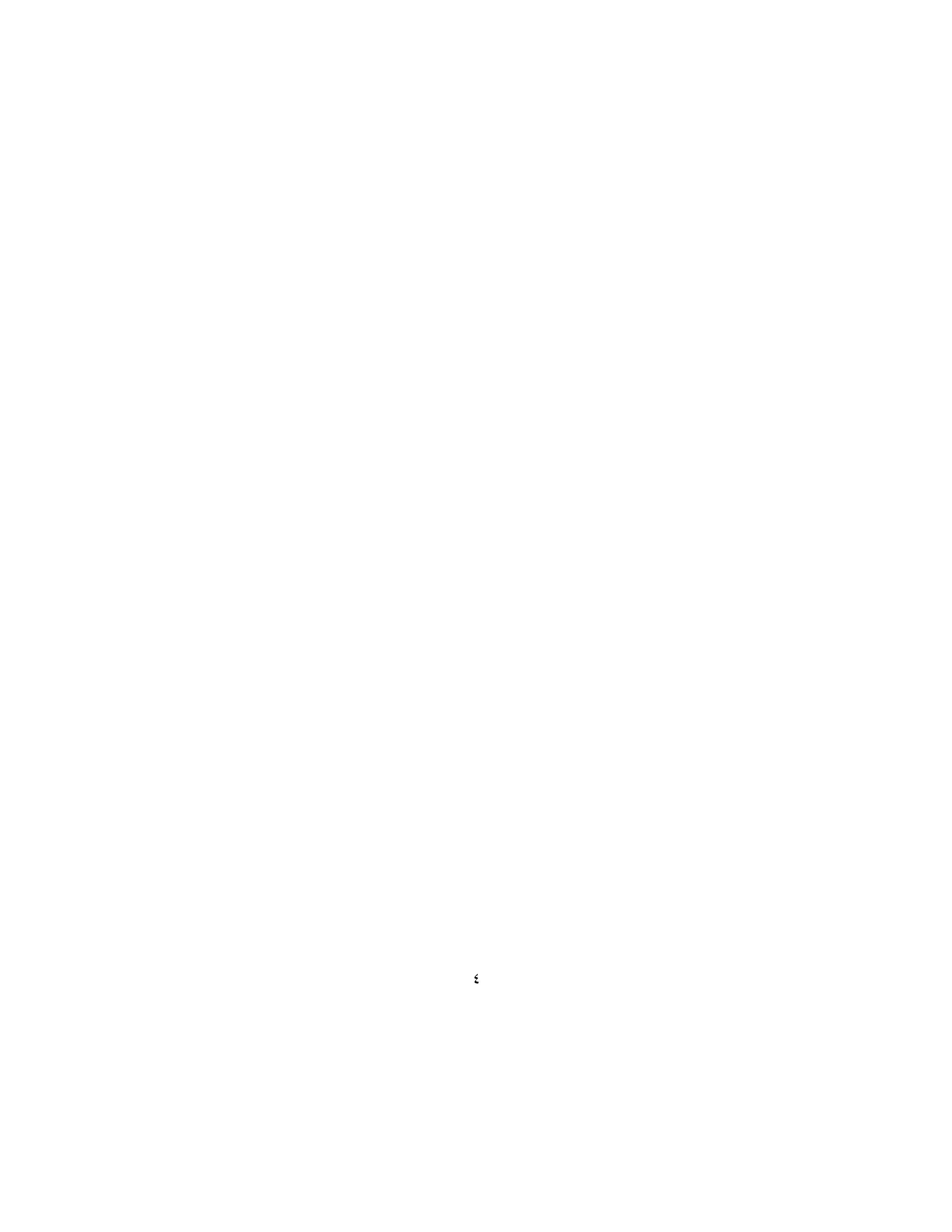
تدمك: ٨- ٤٧- ٥٧٧٢- ٩٧٧

أ – العنوان **رقم الإيداع / ٢٠٠١/١٤٩٧٨**

أعراس فاس

العادات الشعبية





تراث جميل

يتوفر المغرب على مجموعة فريدة من العادات التي ترجع إلى وقت مبكر والتي توارثها الناس جيلا عن جيل، وإن الذي يعنى بجمع هذا التراث ليجد نفسه أمام سجلات تزدان بمختلف التقاليد الجميلة، والنبيلة كذلك، بل إنه ليجد نفسه أحيانا أمام أعراف ترجع في مجموعها.

كما لاحظ ذلك المؤرخون القدامى إلى آداب إسلامية وأصول عربية، ونوازع إنسانية، وأن العناية ببعث مثل هذا التراث لدليل عملي حقا على أننا– ونحن نبني للمستقبل– لا نحجم عن الالتفات إلى الماضي لنتلمس ما فيه من معاني السمو ومعالم الرقي، ولنرى كيف أن هذا العالم العربي سواء منه الذي يقيم في المغرب أو المشرق إن هو إلا "وحدة" تتجسم أيضا في العادات والتقاليد كما تتجسم في المقومات الأخرى، تتجسم في مختلف مظاهر حياتنا الاجتماعية، وفي صور تختلف قليلا في بعض الأحيان لتكون تامة وكاملة أحيانا أخرى. وسأحاول أن أستعرض في هذه السطور صورا للعادات التي

تمس حفلة الزواج ببلاد المغرب، وبصفة خاصة مدينة فاس التي كانت منذ القدم أرض الميعاد لكل العادات التي وردت من الشرق أو الغرب، تلك العادات التي كونت "القاعدة" التي دأب أهل فاس على احترامها عبر السنين، وسأعتمد في عرض هذه الصور على وثائق هامة فيها المطبوع والمخطوط، المتوارث الذي امتزج بمفاهيم حياتنا والذي تلوكه الآن ألسنة ذوي الثمانين والتسعين ممن فتحوا عيونهم على حياة غضة لم تنل منها تيارات الدخيل في كثير أو قليل.

"العزرى [1] إذا عواج!"

لقد كانت العادة في القديم أن الأم- وهي كثيرة الاتصال بابنها في كل حالاته- عندما تلاحظ أن الوقت قد حان لتزويج ولدها.. تقوم باختيار العروس الصالحة له، وكثيرا ما تكون بوادر تلك الملاحظة تتمثل في بعض الحركات التي يظهرها المراهق أو "العذرى" كما تسميه العامة، حركات عناد وتمرد ومحاولة لفرض نفسه مما يفسر لنا المثل العامي المشهور القائل: "زوج ولدك ما حد عينيه مغمضة" ويقولون: "الحرث بكري والزواج بكري".

والشاب في الطبقات المتوسطة والشعبية كذلك هو الذي يجمع الصداق من عرق جبينه، وهم يعتبرون هذا باعثا للعريس على تقدير عروسه

كما تردد ذلك المقولة الشائعة: "إذا ما جمع الصداق من ماله ما يعرفش بقيمة العروسة".

الخطابة [٢] الأولى:

هنا في هذه الفترة تسأل الوالدة ولدها: هل ما إذا كان يعرف بنتا يقترح التزوج منها.. وتتم معرفته لها قديما عن طريق قرابة ما أو عن طريق نظرة من أعلى سطح، أو من خلال نافذة، فإذا ما ذكر لها فتاة لائقة تتوجه لوالده لإحاطته علما بالأمر، فإذا كان أبوه هو الآخر يرضى هذه الفتاة زوجة لابنه، بدأت إذن عمليات الخطبة.. تختار الوالدة إحدى السيدات من رفيقاتها أو قرابتها أو جيرانها لتتصل بأم الفتاة مخبرة إياها بأن "دار فلان سيزورونكم للخطبة"، وهنا يكون جواب الأم "إن الأمر بيد الأب، وستعرض عليه أمر هذه الزيارة المحتملة فإذا قبلها أخبرت هذه الواردة" وتعود الخطابة مرة أخرى لتتلقى جواب الأم.. هنا نجد أن الوالد يقوم بتحر أول عن حالة "العزرى" وحالة والديه، فإذا كان لا يعرف عنه شيئا فإنه يستقصى أخباره ممن لهم صلة به، وأحيانا يتوق لرؤيته رؤيا عين، وبعد كل هذا يشعر زوجته بنتيجة بحث في الخارج، فإذا كان لا يرى مانعا من قبول الخطبة أذن لها في فتح صدرها للزائرين، لكن النتيجة إذا كانت مما لا يشجع أخطر زوجته برأيه وتكون هي

لبقة في دفع "الخطابة" بالتي هي أحسن.. فكثيرا ما يكون الجواب على هذا المنوال: "يا عزيزتي إن البنت ما تزال صغيرة وإن الوقت لم يحن بعد لتزويجها.. وربما كان الجواب "أنها مخطوبة من ابن عمها" وفي تقاليد المغرب القديمة أن لابن العم الحق كامل الحق في أن يستأثر قبل غيره ببنت عمه، وهم يقولون: "ولد عمها يخرجها من "الكبة [٣]" والعامة تكنى عن الحديث في أمر الخطبة بـ"الهذررة"، فالفتاة "المهذور" فيها مرشحة للخطبة.

الخطابات..

أما في حال رضا والدي البنت فإن الأم تعهد إلى ثلة من القريبات بالذهاب إلى منزل العروس بعد أن تحدد معهن موعدا بذلك، وفي الوقت ذاته تشعر أهل العروس بالوقت المحدد لهذه الزيارة ويتم هذا الاتصال في جو من الابتهاج، وتقام في العادة ضيافة على شرف الزائرات اللاتي يكون من ضمنهن الخطابة الأولى.. وبعد تبادل الأحاديث في ذكر محاسن كل من الأسرتين والتناسب الكامل الذي يوجد بينهما، والتنقيب عن الوشائج القريبة والبعيدة التي قد تربط بين العائلتين، بعد كل هذا يعربن عن الغاية من زيارتهن: جئناك لخطبة ابنتك لالة [٤] فلانة لولدنا سيدي فلان" فيكون جواب الأم: "لو طلبتن إلى عيوني لما ترددت.. الله يكمل بالخير.."

موقف العروس

وماذا يكون موقف العروس التي يعنيها الأمر؟

إن الفتاة في يوم الخطبة يطغى عليها الحياء لدرجة كبرى، وكثيرا ما تختفي عن الأنظار: أنظار الخاطبات، وهي مع كل هذا تحس بقشعريرة من الفرح والسرور، وغالبا ما تطمئن إلى هذا الزواج الذي اختاره أبوها باعتبار أنه لا يسعى لها إلا في الخير.. ولكنها إذا كانت تعرف الفتى بطريقة ما، ولم ترتضه زوجا لها فإنها تظل منقبضة باكية منذ اليوم الأول مدعية أنها لا تبتغي بولديه بديلا، وهي تفضل أن تستمر خادمة لهما وحسبها سعادة أن يرضيا بذلك.. وهنا كثيرا أيضا ما يفهمون منطق البنت ويعتذرون للخطابة.. بيد أن هناك من الآباء من يتصرف رغم هذا "الاحتجاج" ويتكل على "الزمن" الذي قد يساعد على تقوية الأواصر وتنمية الألفة.. وكل هذا — دون شك– في الفتاة "العاتق[٥]"، كما يسميها الاصطلاح المغربي، أما التي توفي عنها زوجها أو المطلقة فإن أحدا لا يستطيع أن يرغمها على نوع ما من الأزواج وفقا للتعاليم الإسلامية.

الاستشارات..

وقد ذكرت أن الوالدة تستفسر ولدها هل ما إذا كان يعرف فتاة يتزوجها.. وبودي أن أعرض لما إذا لم تكن لديه فكرة عن فتاة بعينها، هنا تبدأ استشارات الأم لأحبابها وأهاليها بل وللنساء الأخريات اللاتي يعتدن

الـتردد علـى المنـازل كالـدلالات[٦] والمـشاطات.. وغالبـا مـا تنتهـي هـذه الاستشارات إلى أسماء معينـة لطائقـة مـن الفتيـات، وترتـب هـذه الفتيـات في الغالـب أيضا: الأولى فـالأولى، ثم بعد هـذا يتحيل لرؤية "العـروس المنتظرة" في حفلة عـرس أو حمام بلدي، وربما تسربت إحدى المبعوثات إلى بيتها فدخلته متنكرة تدعي أنها تسأل عن جيران كانوا يسكنون هنا. وهنا تلتقي بالفتاة.. وكم يكون دليلا على حذق المبعوثة وكياستها أن تتوصل لمحادة الآنسة واختبار أحوالهـا واسـتمناحها كـأس مـاء مـثلا، علـى أن ممـا يـدخل ضـمن هـذا "الاستخبار" أن تقـوم الخطابـات بقـرص المخطوبـة، وقـد يقبلنهـا في فمهـا.. وأحيانا يرمين بأكفهن- وهن شبه مازحات- على صدرها.. وكل هذا من أجل التأكد من حيويتها وطيب نكهتها وصغر سنها! وعلى ضوء هذا التقرير تقوى رغبة الفتى أو تبرد، ويخبر عادة بواسطة قريبة وتكون في الغالـب أخته، فهي التي تتولى تصويرها له: "غزالة ذات ملمس حرير، وقد خيزران، خدود ورد، عيون سود، ظل الأشفار على الوجنات.!!" .. لكن لا ننسى أحيانا أن الخطابة قد يعاكسها الحظ أو تتعمد لغرض ما أن تدلس فى التقرير فتعبر عن القصر بالطول، وعن السواد بالبياض، والسمن بالنحافة.. وعلى كل حال فإن بخت الزوج في هذه الحال يكون بين شفتي هذه المبعوثة..! وكثيرا ما يؤمن الناس بهذه الكلمة السائرة: "إذا كانوا مزوجين في السما، تيعطي رب للخطابة العمي!".

الأبارين..

ويدخل ضمن العادات المعروفة قديما بالمغرب وجود دكاكين خاصة في بعض الأحياء يعتمرها شيوخ عرفوا بتقصيهم لحالة منطقتهم، فهم يعرفون الأسر والعائلات كبيرا وصغيرا، ولذلك فإن الناس يلتجئون إليهم لاستشارتهم فيما يتعزمون عليه من خطبة، وهم يعرفون الصالح لهذا الزوج من النساء والصالح لهذه الزوجة من الرجال، أي أنهم "يؤبرون" بينهما على قياس تأبير النخل مثلا.. وما يزال نهج إلى الآن من أحياء مدينة فاس يدعى نهج الأبارين قرب جامعة القرويين لكن وظيفة هذه الدكاكين انقرضت على أن "جامع الأبارين" ظل إلى عهد قريب مكانا مقصودا لاجتماع العائلات من أجل "كمالة العطية[٧]".

"كمالة العطية"

وبعد إجراءات تلك الخطوات الأولى من طرف النساء، يأتي دور الرجال حيث يقصد – يوم الجمعة غالبا– والد "العزرى" والد "العاتق" في جملة من الأهل والأحباب ولابد أن يصحب معه "المشيخة [٨]" من الشرفاء والعلماء ويختلي بعض الواردين بوالد العروس ليؤكدوا له أنهم راغبون في كريمته لالة فلانة لولد السيد فلان "صديق الجميع" .. ولابد أن يكون جوابه "أن البنت بنتهم وأنهم منه وإليه"، وهنا يفاتحون والد العروس في مقدار الصداق ليشعروا به والد العروس، فقد تكون له مراجعة وقد يبارك اقتراح صهره، ويتم

الاتفاق في الأخير، على مقدار ما.. وقد يضيف والد العروس شروطا على أهل الزوج، وغالبا ما تكون هذه الشروط على النحو التالي:

"اشترط أن تسكن معي في داري" وهذا ما يسمى عند العامة "الجورة المعلقة"! أي الجوار المعلق. وقد يكون في الشروط ما يعبر عنه هكذا: "الداخلة بالخارجة" يعني إذا ما دخلت بزوجة ثانية فإن ابنتي تخرج ويتم الطلاق!.. وفي الغالب تسود جو هذا اللقاء بين الرجال عواطف متبادلة بين الجانبين.. وبمجرد إعلان خبر "كمالة العطية" في كل من البيتين تتعالى زغاريد النساء، وتتهيأ والدته، وتختفي العروس عادة في هذا اليوم، لكن أم العريس تحت عذر رغبتها في زيارة زوايا المنزل تطوف بسائر أركان البيت حتى تكتشفها فتلثمها من غير أن تنبس الفتاة ببنت شفة!

"نهار الفاتحة [٩]"

ولحد الآن فإن خبر الزواج يقتصر على العائلتين فلأجل أن ينتشر بصفة أوسع لابد من "نهار الفاتحة"، ويختار عادة يوم الجمعة.. يقوم حجام[١٠] العائلة بدعوة القرابة والأصدقاء، ويجتمعون بعد صلاة العصر في ضريح المولى إدريس، ويتوسط العائلتان عالم أو شريف أو إمام.. ويقرأ سورة الفاتحة بصوت منخفض، ويبارك الحاضرون عمله، ثم يتبادل الناس آيات التهاني ويبعث العريس إلى عروسه بالحليب والتمر والشمع وحناء الخطبة وبعض القطع من الثياب.

شرب الحليب

وقد تجرى عادة عند بعض العائلات "يوم الفاتحة" وتلك هي "شرب الحليب"، حيث تحضر لها آنية الحليب التي بعث بها الخطيب فتتناول منها بعض الشيء، وذلك تفاؤلا بتحابهم وتوادهم وإقبالهم على عهد ناصع صاف كالحليب.. وبعد أن تتناول العروس نصيبها من اللبن "تتفضل" فتناول زميلاتها "العواتق" الآنية المحظوظة ليتناولن منها نصيبهن لتكون العقبى لهن في الفرصة القابلة وترد الأواني والظروف لبيت الخطيب وقد اشتملت على بعض الهدايا، وكثيرا ما تكون هذه المرة الحلوى التي تعرف عند أهل فاس باسم "جبان" (١١).

ولابد أن يحدد شهر العرس منذ اليوم، وهو لا يتجاوز في الغالب السنة والسنتين من هذا التاريخ.

"التفكيرة" (١٢)

ولابد أن تظل شهور الخطبة مناسبات لتقديم الهدايا و"التفاكر": يبعث بها الخطيب لخطيبته بمناسبة أيام الأعياد والمواسم وتتألف من بعض الحلي واللباس، وذلك لإشعارها دائما بأنه يصون عهدها.

"دفع النقدة" [١٣]

ويوم "دفع النقدة" يعني انتهاء فترة الخطبة وبداية الاستعداد للزوار، ويقترن هذا اليوم بتحرير عقد النكاح من طرف العدلين المختصين.. أن كلا من بيت العروس يتحلى بمعالم الزينة، وكل منهما يتوفر على المدعوين من الأقارب.. يحضر العدلان بيت والده أولا ويتناول المدعون الطعام التقليدي الذي تبرع "الطباخات" في تحضيره، وهو يتألف عادة من البسطيلة [١٤] والتفايا "١٥"، والدجاج المقلي، وحلوى الرغيف [١٦]، أو البريوات [١٧]، يتسلم العدول النقدة بمحضر ثلة من رفاق الجانبين، ويتهون نحو منزل والد الفتاة حيث يجدون هنا جماعة من الأهل والأحباب، وقد توضع الموائد أيضا لهؤلاء الزائرين ولو أنهم تناولوا الطعام منذ وقت قريب! وتسلم المبالغ سواء منها "النقدية" أو الهدايا والتحف المقدمة، وهنا يكتب الصداق.. أو تحرر عناصره، ولابد أن يشتمل على تعريف تام بالمتعاقدين ووصف مدقق للمهر إلخ..

هذا وأن صداق العروس يكون مناسبا للوضع المالي الذي ينعم به الأبوان، هناك أنكحة سجلة أواخر القرن الماضي من سبعين إلى مائة ريال، وهناك أنكحة سجلت بأكثر من هذا قليلا ومن المناسب أن نشير هنا إلى أن في الآباء من يطالب بصداق مرتفع الثمن اعتمادا على ما شاع من أن المهر إذا كان رخيصا كان مما يجعل الزواج غير مكترث بالتطليق، الأمر الذي يفسر

المقولة الشائعة عندنا "هوان الصداق يهون الطلاق"، لكن في الآباء من يصيخ أسماعه للتقاليد الإسلامية الصحيحة في الموضوع، ولذلك فهم يتحاشون المشاحة والمماحكة في المقدار ويميلون إلى المكارمة والتساهل.

وفائدة الصداق بالنسبة للطبقة الضعيفة أنه يعين الوالد على تهيئة لوازم البيت الجديد، أما بالنسبة للطبقة الغنية فإن الوالد كثيرا ما يقتنيه مجوهرات وحليا لابنته، ويعتمد على كيسه في إعداد "شوار" (١٨) العروس.. وقد ساد العرف بأن والد الفتاة يقوم برد قدر مماثل للصداق، أي أنه في "الشوار" ينفق مثل القدر الذي تسلمه في الصداق لكن النفقات في كثير من الأحوال تفوق قدر الصداق بنسبة كبيرة.

"القفة" (١٩)

ولا ننسى هنا أن نذكر أن أمنية الآباء الغالية أن يرزقوا الوسائل التي تجعلهم يقومون بإهداء بناتهم للعلماء أو الشرفاء، فقد كان العلماء يتبوأون مركزا اجتماعيا مهما، وكان الأشراف– وهم عترة النبي العربي– ينعمون بعطف كبير من لدن أفراد الشعب، ولذلك فقد كان من الاعتراف بفضل هؤلاء لابد في مقابلة هذا التكريم أن يبعثوا بما يعرف تحت اسم "القفة"، وهي هدايا تقوم مقام المهر المتنازل عنه، ولعل من الطريف هنا أن نشير إلى أن هذا الإهداء قد يدخله في القليل النادر نوع من الغرض، وقد يكون بباعث إرادة

التخلص من فتاة وحش أو عانس وهذا مع أنه– كما أسلفت– قليل نادر لكنه معروف، وهو الذي تردده المقولة الشائعة: "فأين ما كانت شي كرفا [٢٠] تتهدى للشرفا!"

يوم الشراء.. ويوم الفصالة

وبالإضافة إلى الأيام الماضية تكون هناك أياما عائلية، وتختلف بحسب العائلات.. وإن في أهمها "يوم الشراء" أي اليوم الذي يقتني فيه والد العروس الثياب اللازمة للفراش، وقد عرف في مدينة فاس أن العروس المثالية هي التي تقوم بتطريز المخدات على الشكل التقليدي الدقيق، وعملية الطراز هذه تتطلب وقتا طويلا وعقلا مستجمعا وهم يهدفون بتحميلها هذه العملية الشاقة – علاوة على ما تدل عليه من فنون جميلة – تدريب العروس على الصبر والمصابرة حتى تقبل على حياتها الثانية بقلب متحمل.

وقد يخصص يوم آخر للفصالة تحضره الأقارب والأحباب وتبسط فيه الموائد.. ويتم في هذا اليوم تفصيل الثياب على العروس، وزغاريد النساء في مثل هذه المناسبات لابد منها، والنساء في المغرب مدربات على القيام بالصرصرات المتوالية، ولعل من عاش في المغرب قد عرف عن أمر هذه الزغاريد التي أمست شعارا للترحاب والتعبير عن السرور.

جهاز البيت واللباس

لابد أن يتضمن "الشوار" أشياء أساسية: سداري [٢١] واحد- مطربتان [٢٢]- فراشان- كليستان [٢٣]- مخاد- سطارم [٢٤] مساند [٢٥] — غلافات للمخاد- خوامي[٢٦] ثلاثة فيها الطويل والقصير والمتوسط- تلامط [٢٧]- لحوف [٢٨] — قرقطون [٢٩]- حايطي- [٣٠] حراقس [٣١]- زربية- أزر- غطاء.

ومع هذا فإن لباس العروس يعني الأشياء التالية: قمصان ذات أكمام من الشاش- قفاطين [٣٢] متنوعة، فوقيات [٣٣] كذلك — مضمة- شربيل [٣٤] صم، سراويل- تخمال [٣٥]- محرمة [٣٦] مطرزة.

هذا إلى عشرات المناديل الصغيرة المطرزة الأركان، ومختلف الثياب التي تهديها إلى أقارب الزوج، ويضاف إلى هذا طبعا بعض الأثاث المناسب.

الاستعدادات..

ويختار فصل الصيف عادة للاحتفال حتى لا تضايق الأمطار مكان الاحتفال سيما وفناء الدار [٣٧] الفاسية هو الذي يتم فيه تجمع المحتفلين، ولا يصلح أن يكون العرس في رمضان أو عاشوراء مثلا. ولابد أن يكون اليوم

معروفا قبل الدخول بشهور حتى يتسنى الاتصال بالآليين [٣٨] والنكافات [٣٩] والحجامة.

وقبل أن ينجد الفراش تبعث أم العروس بسيدة لبيت العريس من أجل أخذ مقياس البيت[٤١] المنوي تفريشه: تصحب معها شريطا من "القيطان"[٤١] لتمسح به المكان، وترجع ومعها – إلى جانب المقياس– قطعتان إحداهما من الخيط المقصب، والأخرى من الحرير الأبيض يبعث بهما الزوج لأخذ مقياس رجلي عروسه حتى يعد لها الشربيل.

نهار التنقيل

وقبل الدخول بأيام ينقل "الحمالون" "الشوار" إلى بيت العريس: يوضع الفراش في حزمات منظمة ويغطى بأزر خاص في غداة معروفة، وبعد أن يتناول "زرزاية" [٤٢] فطورهم الذي يتألف غالبا من "الخليع" [٤٣] والبيض وأتاي [٤٤]، وبعد أن يطوفوا به في فناء المنزل يقصدون الدار وقد تقدمتهم نكافة على رأسها لفافة مطرزة بالحرير الأزرق تضم "الكسوة" التي تقدمت بها العروس لعريسها بهذه المناسبة وفي يد النكافة مبخرة يتضوع منها العود القماري.. كل الناس في الشارع يعرفون أن الأمر يتعلق بجهاز عروس، بل ويدركون المركز المالي الذي ينعم به الزوجان من خلال تلك "المحمولات".

وقد تصحب هذا الموكب جوقة من الطبالين والغياطين.. ولابد عند الوصول إلى باب بيت العريس أن تنطلق صيحات النكافة "بالتثقيل" [٤٥] وذلك إيذانا بالوصول.

نهار الزينة

وفي اليوم الموالي تصل الفراشات، وقد زودن بكل ما قد يحتجن إليه من عدد: خيط- إبرة- مطرقة- مسامير- خرص- ومبخرة لسرغينة [٤٦]، أو العود القماري، شواك إلخ..، تفرش الحجرة على شكل تقليدي لا يحاد عنه، وأن أهم ما في هذا التصميم أن تفرش واجهة البيت بـ"السدادر"، تجعل إحداه فوق الأخرى إلى منتصف سمك البيت، حيث يغلف الجدار بالحايطي الزحاف المطروز بالصقلي [٤٧]، ثم ذات اليمين وذات اليسار يبنى "حائط" من "المطرباب وتعلق "الرواقات" [٤٨] في أعلى كل منهما، ولابد أن تبقى زاوية بين الجدار وبين "الحائط" لتصلح "دخشوشة" [٤٩] للعروسين.. هذا بينما يوضع مجلس مرتفع للعروس وسط البيت ليتمكن النظارة من رؤيتها وتوضع يمين هذا العرش ويساره "الكليستان".

نهار التقبيب

وقبل الدخول بخمسة عشر يوما تأخذ العروس في غشيان الحمام مرة على رأس كل يومين، آخر هذه التحميمات هو اليوم الذي يحمل اسم

"التقبيب" [٥٠] أنه يكتسى حلة خاصة، فالعروس بعد أن تخضب شعرها بالحناء في زاوية من البيت موقدة السراج، تقصد الحمام بعد وقت العشاء في جملة من قريباتها حيث تسلم للطيابات [٥١] اللاتي عهد إليهن بخدمة النساء في الحمامات وهؤلاء يقمن بتقبيبها، أي صب سبعة أقباب عليها من كل قب ثلاث طاسات مكية [٥٢].. ولا تفتأ زغاريد الصديقات والمتطوعات، وأضواء الشموع، ويكون وجه العروس في أثناء هذا كله إلى جهة الحائط حتى لا تصاب بعين شريرة! ومن الطريف أن نسمع أن ما يفضل من الماء في هذه الأواني السبع ترش به "العواتق" اللاتي يترقبن دورهن في الزواج، وفي حال قيام العروس فإنها تحاط بمحرمتها، ومن المعلوم أن الطيابات تنالهن بهذه المناسبة نفحات من لدن العروس فهن يستأثرن بلباسها القديم الذي كان لها لما كانت "عاتقا" أن العرائس يشعرن منذ هذه الليالي "بانقلاب" جدي في حياتهن.

القوالب الصغار [٥٣]

وترجع إلى البيت فيستقبلها "إيسلانها" [٥٤] ويدخلنها للقطاعة [٥٥] التي نصبت لها.. وبعد تناول العشاء يأتي دور المعلمة "الحناية" [٥٦] فتأخذ في خضب رجليها بالحناء "التواتية" [٥٧] على شكل تقويسة في ظهر قدميها ويتعزز جانب العروس بمرافقة عرائس حديثات العهد بالزواج يسدين لها نصح المجرب ويحتفظن باسم "المزوارات" [٥٨] وهن "إيسلانها".

القوالب الكبار

وبعد تلك الليلة الأولى تأتي "القالبة" الثانية.. أن كل من لم تحضر من القريبات والمدعوات في القوالب الصغار لابد أن تتخذ استعدادها للالتحاق بدار العرس في القوالب الكبار، تكون العروس قد كملت نهارا الحناء التي قوستها بالأمس، فلقد ذوقت الحناية يديها ورجليها، وعندما يقبل الليل تنزل العروس من فوقي الدار إلى سفليها بالتثقيل والزغاريد، وذلك لتضفير السلتة[٥٩] وتستعين المختصة على تسريح شعر العروس بمشط من عاج يغمس بين الحين والآخر في "طاسة "الخواض، وهي عبارة عن آنية مملوءة بمزيج من ماء الريحان والورد إلخ، وتضفر السلتة بخيوط خضر مقصبة الأطراف، وتتوسط السلتة أعلى الجبهة حجرة خضراء كريمة، بينما تختم الأطراف بأحجار المرجان، وإثر هذا تتعرض لنوع من الزينة ما عرفته في لياليها الماضية، ذلك أن النكافات يعمدن إلى خديها فيصبغنهما بالعكار الأحمر، ثم ينقط بصبغ أبيض ولون زنجاري[٦٠]، وبعد هذا تتم "الدورة" : يأخذن بيدها — وهي دائما مغمضة العينين- ويسرن بها دائرات في فناء المنزل على أضواء الشموع وزغاريد الحاضرات، وتحمل عقب هذا على مائدة فوق أكتاف النكافات ليدرن بها على الفناء محمولة.

وأغلب ما تتم هذه "الدورة" بحضور جوقة الحضارات "٦١" المنشدات المادحات، وباثر نزولها من المائدة يقصدن بها عتبة البيت، وهنا يبدأ "الرهن"

تقف بجانبها النكافات لتقلن: ها! هي مرهونة! في يد أمها مرهونة! في يد عمتها مرهونة! في يد أختها مرهونة! ويكون على من ذكر أن ينثر النكافة بقدر من المال ليخلص العروس المتعبة من هذا "الرهن"، وبعد هذا يأتي دور التعشيق (٦٢) إطراء محاسنها وجمالها في عبارات تختلف باختلاف لونها وعائلتها.

وهناك في الأسر الشريفة من "تعشق" العروس على منبر.. وهناك من تكتفي بالوقوف على عتبة البيت، والمدعوات على أصداء هذا التعشيق "يغرمن(٦٣)" على النكافات.. وآثر التعشيق يقصدن بها البيت لإجراء عملية "الوشي" بالحناء على معصمها، ولابد أن تتقدم القريبات بهدايا وغرامات بهذه المناسبة تكون من نصيب العروس، لقد مضى الليل كله في هذه العادات التي لا تنتهي إلا عند الصبح!! والنكافة في كل هذا تعرف بالمهدي ونوع الهدية على مرأى ومسمع وتتمنى باسم عائلة العروس أن تتاح قريبا الفرصة لمكافأة المتبرعين.. ويلاحظ أن النكافة تكون على سابق علم من هذه الفرصة القابلة، قد تكون ختان طفل أو تزويج آنسة أو رجوع حاج فهي تقول "سترد عليكم في ختان ولدكم أو زواج بنتكم إلخ.. ويعتبر هذا نوعا من التعاون بين الأقارب يعبر عنه بكلمة "الصواب" ولابد أن تعرف العائلة ما لها وما عليها في هذا الصدد: فهي تحسب ماله من سابق عون للآخرين.. وتترقب أن تؤدي ما عليها لهم.. وقد جرت العادة أن من لم تترقب فرصة لاسترجاع

"الصواب" المبذول من لدنها تنظم- على الأقل- يوما تحنى فيه، ويكون مناسبة لتلقي ذلك "العون" .

وترجع العروس بعد كل تلك التقاليد المرهقة لقطاعتها لتستريح.

العراضة (٦٤)

وإذا كانت دعوة الرجال إلى حضور حفلة العرس تتم بشكل عادي تقريبا، أي أن يكلف كل واحدة من العائلة بلائحة معينة أو ترسل بطاقات مكتوبة تعين اليوم والتاريخ، إذا كان ذلك بالنسبة للرجال، فإن النساء يدعون للقوالب الصغار والكبار. أو العرس بواسطة "عراضة" تطوف على البيوت المدعوة وبيدها أصيص بالورد والأزهار.. تدخل البيت لتتقدم بالدعوة، ولابد أن تكرم الداعية وتمنح بعض النقود التي توضع في هذا الأصيص الشفاف.

شلية (٦٥) العريس

وفي أثناء هذا نجد أن الزوج هو الآخر يحيا حياة غير عادية، فلقد استعار والده درا مجاورة تكون طيلة أيام الاحتفال ملاذا للعريس وأصدقائه، وهذه الدار هي التي تحمل اسم "دار إيسلان" حيث ينهمك أصدقاء العريس في إعداد رسائل "العرضة" وفي مساء ليلة الدخول يأتي حجام العائلة

"بالشلية" ويحضر العريس من دار إيسلان محمولا على أعناق رفاقه، وقد أسدل "قب [٦٦]" جلبابه على وجهه حياء! وفي جو من الفرح والابتهاج يجعل على الشلية الموضوعة وسط دار العرس وقبل أن يحلق الحجام تأتي النكافة فتبلل شعر العريس بماء الآس لأنه فأل حسن، ويجمل الأصدقاء عادة جبهة رفيقهم بقطع نقدية تكون من نصيب الحجام، بينما مساعد الحجام يردد بين الفينة والأخرى "الله مع سيدي فلان! الله مع صحاب العروس!"، ويشارك المدعون الأقربون في هذه "الغرامة"، ولمساعدي الحجام الحق في خمس المال المتحصل، وعندما ينتهي الحجام من الحلق والتزيين يلتحق الموكب بدار إيسلان، وفي هذه الأثناء تتخذ الأهبة لليلة الدخول، ولكن مع هذا نلاحظ أن العبء بالنسبة للرجل أخف منه بالنسبة للمرأة، فإنه ليس بحاجة إلى تبديل السكن ولا كذلك الأقارب ولكنها هي تتعرض لتطور ملحوظ في حياتها.

بيت الراحة

وفي الناس من يفصل بين القوالب الكبار وليلة الدخول بليلة أخرى تنعم فيها العروس بالراحة من تلك الأتعاب المضنية حتى تستقبل زوجها، وفيها من الاستعداد ما يلزم، لكن طائفة من الناس يختصرون من "بيت الراحة" ويسلمونها إلى ليلة الدخول حتى تستجم من بعد.

العواتق وحضور الأعراس

ومن التقاليد المعروفة تشجيع العواتق على حضور الأعراس والامتزاج بالعروس حتى يؤانسنها من جهة بما يتبادلن من لذيذ الأساطير، وخاصة منها ما يمس الحياة الجديدة، ومن ناحية أخرى ليتأهبن بدورهن لتقبل التكاليف المنتظرة، والوالدة تهدف من وراء هذا أيضا شغل بال ابنتها بأمر الزواج وحصر اهتمامها به، حتى تظل في البيت مستعدة على الدوام لما يسعدها في المستقبل من الأخذ بوسائل الطهي والخياطة وتربية الأولاد.. وعلى العكس من هذا فليس مما يليق بالعواتق أن يعدن مريضا أو يهنئن نفساء، وأن هذا الأدب الذي أشرت له هو مصداق القولة المعروفة في مدينة فاس: "عاتق باب الجيسة تطلل على المريض وتهنئ النفيسة"، وباب الجيسة أحد أبواب فاس الكبيرة، ويسكنها عادة المهاجرون من البادية الذين لم يتأقلموا بعد!!

ليلة الدخول: دار العروس

تجرى الحفلات هذه الليلة في كل من المنازل الثلاثة: دار العروس ودار إيسلان ودرا العريس، تضم دا العروس المدعوين من الأصدقاء والأقارب، والنساء يحتفظن- عادة- بمكانهن في الطبقة العليا من البيت، يجلس الوالد عادة عند مدخل الدار وإلى جانبه القرابة القريبة ليتقبلوا تهاني المدعوين، يرد للناس من مختلف الطبقات، فهل هناك من يهدي كلا إلى حيث يوجد

زملاءه؟ هذا دور "الحجامة" الذين يختصون بخدمة المدعوين في الحفلات، إنهم بحكم مهنتهم في البلد يعرفون مختلف الأسر والعائلات، ولذلك فهم – بعد التسليم على الوالد– يرشدون المدعوين إلى الحجرة أو الركن الخليق بهم، فالعلماء والأشراف والأعيان والصناع والتجار كل يجد نفسه في البيئة التي ألفها! وهنا يطاف عليهم بالمباخر التي يتضوع منها العود القماري، وتوضع عادة تحت جلابيبهم، بينما الحجام يرش من فوق اللباس بماء الزهر أو الورد المقطر، وللناس عادة في تقطيرهما ببيوتهم إلى اليوم، وبعد هذا يتقدم الذي يقم (٦٧) الشاي، وما هي الإ برهة حتى توزع على الجميع الكؤوس التي تفوز، وإثرها مباشرة يقدم "دواز" (٦٨) أتار، أي كعب الغزال المفند وغير المفند إلى نوع آخر من الحلوى يعرف تحت اسم "الغريبة" من سميد ولوز، ويعلون بعدما ينهلون وهكذا على صنعات الآليين إلى منتصف الليل، حيث يقدم للمدعوين "الطعام التقليدي"، ثم يستسلم الناس للحديث منتظرين وصول أصحاب العريس.

حفلات العريس

وفي دار العريس تجرى حفلة مماثلة.. ولا يصح أن يوجد العريس هنا لأن التقاليد تمنع من ذلك، ويكتظ المنزل أحيانا ليجد فى الدار المجاورة متنفسا للازدحام، وهكذا على نغمات "الآليين" أيضا إلى منتصف الليل حيث يتناولون "الطعيم".

دار إيسلان

وعلى العكس مما عهدناه في دار العروس ودار العريس فإن الطرب المستعمل في دار إيسلان هو الطرب الشعبي المسمى بالأشياخ، ويميل جو الاجتماع في هذه الدار إلى الدعابة والتندر على أن العريس هنا يحمل لقب سلطان، وأمسى زملاؤه "وزراء" له وكثيرا ما نسمع بين الآونة والأخرى أحد الأعوان يردد: "بايع!" فيجيب الحاضرون متفكهين: "الله يبارك في عمر سيدي!" على نهج ما يقال عادة بحضرة السلاطين في المغرب، وقد تلفق على بعض الأصدقاء "مخالفات وتهم" فيفرض عليهم أداء مبلغ ما. ويتجمع من هذه المبالغ ما يكفي لإعداد نزهة إثر الأيام السبعة.

موكب الليل

وبعد هذا يتهيأ الموكب الذي يتقدمه الأطفال والخدم وبيدهم المشاعل... وينشد الناس في طريقهم أمداحا نبوية تعقبها طلقات البارود التي تنطلق بين الفترة والأخرى، هذا إلى كتلة من النساء والأوانس اللاتي يدلفهن إلى دار العروس قبيل الموكب أو معه، وقد جرت العادة أن أهل العروس لا يتركون باب بيتهم مفتوحا عندما يشعرون بقرب وصول الموكب، الأمر الذي يقضي على أصحاب العريس بأن يدقوا الباب مرارا ملحين في الطلب، وبعد

هذه "المقاومة الرمزية " تختلط الأسرتان وينشدون معا أهازيج الأفراح، ونسمع أصدقاء الزوج يزجلون: "أعطونا ديالنا! ما بقاشي ديالكم" وكم يعز على الوالد أن يفارق كريمته! وقد جرت العادة أن الفتاة تتأثر لهذا الفراق، ولذلك فهي تسترسل في البكاء واستدرار الدموع، لكنها دموع لا تلبث أن تجف! وقد حدث ذات يوم أن والدا تأثر من "بكاء" صغيرته، فسألها هل ما إذا كانت تفضل أن يبعث بأختها عوضها؟ ولكنها أجابته والدموع تخنقها "كل شيء بكى ومشي"! ويرجع الموكب ولكنه هذه المرة يتخذ شكلا من التنظيم: ففي المقدمة أهل العريس، ثم النكافات، ثم موكب العروس ويحيط بها هي طائفة من النساء متلفعات — في حائكهن [٦٩] الأبيض- تماما كما هي.. ويختم الموكب بالقرابة القرابة للزوج كأنما هي الحارس.

وبينما يردد موكب العريس هذه العبارة: "عباها" [٧٠]" عباها والله ما خلاها!" "هنا طاح اللويز! هنا ندور عليه!" يجيب الموكب الثاني بهذه العبارة الأخرى: "عباته عباته والله ما خلاته!"

واعتاد الأطفال بهذه المناسبة أن يدقوا- وهم في طريقهم — أبواب المنازل الآمنة إمعانا في الإعلان عن الزواج، والنوام لا يجدون غضاضة في ذلك بل إن فيهم من يغتنم هذه الفرصة لإلقاء نظرة على الموكب من نافذة أو باب!

الكبة..

ولكن هل كل عروس تصل إلى بيت العريس على قدميها؟ إن بعض العائلات تستنكف من أن تزف العروس ماشية إذا كانت تنتسب للبيت النبوي، ولذلك فلابد أن تحمل على "الكبة" وهي بالفعل "قبة" من خشب معدة لهذا الغرض، تغلف بثياب تحاكي ثياب العروس وتزين بالحلي والجواهر ويحملها عادة الصحافة (٧١) الذين عليهم أن يحملوها مرة أخرى عندما تقضي مآربها من الحياة، وقد شعر الناس بما تتكبده الشريفة في هذه العادة من ضني فاكتفوا بطواف الهودج فارغا على الشارع بينما تلتحق هي ببيت الزوج على الطريقة العادية.

دار العرايس..

وعلى نهج ما حكى ابن بطوطة عن دمشق الشام، فإن الأوقاف المغربية خصصت من ريعها منذ القدم دورا أسمتها دور العرايس جعلتها رهن إشارة المتزوجات ممن ينتمين إلى أسر عريقة عضها الفقر بنابه وشملها الحرمان والإهمال، فالفقيرة هنا تجد الحلي اللازم والفراش المناسب، ويمكنها أن تتمتع بالمقام هنا مع عريسها طيلة أيام العرس لا تشعر بأي فارق بينها وبين المثريات الأخريات وقد كان بفاس ثلاث دور: اثنتان بعدوة الأندلس، حومة العيون، حومة الكدان، والثالثة بعدوة القرويين بالسبع لويات.. بيد أنه – مع الأسف– لم تستمر هذه العادة كما ينبغي أن يكون.

في بيت العريس

وأمام بيت العريس ينفض الموكب ليؤب فريقها من حيث أتى، بينما يلتحق أصدقاء العريس بدار إيسلان، وتقتحم البيت الجديد حيث تهديها الحارسة الملازمة: "الجلاسة" [٧٢] إلى الدخشوشة، وبعد فترة استراحة تنزع فيها حائكها وتستجمع أنفاسها وتدور بها أيدي النكافات بالتجميل والتحسين على نهج ما تدربت عليه في بيت أبيها، تبرز عتبة باب البيت أمام النظارة وعلى وجهها ستار حيث يناولنها خبزة، وحزمة من المفاتيح، كفأل للنعيم والثروة، وفي العائلات من تدهن عراقيب العروس بالحليب، وتطعمها نصيبا من عسل حتى تخطو في خير، وتنطق بصواب، وتقف ذات اليمين وذات اليسار مساعدتان تحملان التمر والحليب.. وهنا تقترب والدة العريس من عروسها للسلام الأول، وبعد أن تنثر النكافة ببعض النقود تزيح اللثام عن محيا عروسها لتقبلها، بينما هذه دائما مغمضة العينين، وبعد أن ترجع النقاب كما كان، تتناول نصيبا من الحليب والتمر.. وترحب بعروسها وترجع إلى مكانها، وقد يتكرر هنا الجلوس على المنبر، لكن العادة المراعاة هي القيام بحملها على المائدة لتدور على نهج ما تم في بيت والدها ليلة القوالب الكبار على أهازيج الحضارات، ولكن دون غرامات، وقد يطول هذا الطواف وقد لا ينتهي إلا عند الصبح، والزوج بين هذا وذاك ما يزال في دار إيسلان بين يدي معارفه وأصدقائه.

الزفاف...

وبعد أن تنتهي العروس من الدورة.. تغدو النكافات لطلب العروس وهن يحملن "اللفافة" التي تضم "الكسوة" التي قدمتها إليه الزوجة. وينهض أصدقاؤه ليعينوه على اللباس. وقد دأب الرفاق على ممازحة العريس بهذه المناسبة لدرجة المضايق فهم قد يمنعونه من الالتحاق بالبيت كلما هم أن يرضى رغبة اللائي ينتظرن، لكنه بعد أن يتخلص من هذه المفاكهات يودع أصدقاءه ليجد والده فيسلم عليه في استحياء.. ثم يدخل المنزل في تأثر ليجد والدته التي يهوى على قدميها ليمر من تحتهما نحو "الجنة الدنيا" ونحن نعلم أن الجنة تحت أقدام الأمهات! ويتقدمون به إلى الحجرة الضاحكة حيث أخذت العروس مكانها صدر البيت.. يجلس وراءها.. وهنا تأخذ النكافات في تعشيقها من جديد ثم يرفعن عن وجهها الحجاب ليراها لأول مرة.. إنها لحظة تاريخية في حياتهما. وبعد أن يعاد النقاب الشفاف كما كان.. يضع يمناه على كاهلها ليقرأ آية الكرسي.. ثم تتجه الأعين إلى "الدخشوشة" وتحكي العادة هنا أن العريس يكون قد وصى من قبل أحبابه بأن يبادر هو الأول لدخول الخدر، بينما تكون هي الأخرى قد تلقت نفس الوصية إذا مما يشاع أن السابق للدخشوشة يكتب له الاستيلاء على قلب الآخر!..

يجدان أنفسهما رأسا لرأس في الخدر لكن بعد أن تدخل النكافة لتجردها من كل أثقالها.

الصندوق الأصغر

وأن الشيء الذي لا يفارق العروس هو الصندوق الصغير، وهو شيء زائد على صندوق الأعتدة، وهذا الصندوق يحتوي الأشياء الضرورية التي يتوقع احتياج العروس لها من أنواع الزينة والحلي.. وربما بعض الزاد الخفيف الذي تتوقف عليه، فإن مما يشق عليها أن تتناول الطعام طبيعية مع قرين طارئ، ولذلك فهي تستعين بهذا الزاد ريثما تعتاد مؤاكلته!

سروال "المقعدة"

والمغاربة كعرب يعلقون أهمية كبرى على بكارة العروس، ولذلك فهم يعتزون بتلك القطرات الفانية التي ترشح من الفتاة، ويعتبرون ذلك دليلا على عفتها وشهامتها، ومن أجل هذا نجد أن في صدر ما يقدم للعريس وقت اختلائه بعروسه سروال أبيض ناصع، تقول النكافة عنه إنه "سروال القاضي فلان" وتسمى قاضي الوقت، وهي ترجو أن يرجع إليها بعد أن تكون الخلوة قد تمت، وفي يوم من الأيام التالية يصدر هذا السروال الذي يطوى على كيفية تظهر معها البقعة الحمراء ثم يعرض على أقارب العريس أولا ليرحل إلى بيت العروس ثانيا، وكثيرا ما تتعالى الزغاريد مشيدة الفتاة.

الحادث الطارئ!

والعرف العتيق في المغرب كان يتابع العريس متابعة حتى يعجل بإزالة بكارة العروس وهم يعتبرون ذلك دليلا على القوة، والناس في القديم إلى جانب هذا لم يعتادوا حساب "الدورة الحيضية" حتى يحتاطوا فيجعلوا ليلة الدخول في وقت تكون فيه الفتاة في أيام النقاء، لذلك يحدث أحيانا أن يصادف اللقاء "الأيام الحمراء".. ويكون الأمر بالنسبة للزوج حدثا غير مرغوب فيه..! ولكنه يخفف عن "الزوجة" من بعض الدهشة التي ترافقها إذ يساعدها الحال في هذه "الفترة" على الاستئناس بالجو الجديد.. و"الكلاسة"– في هذه الحالة" عندما تناول "سروال القاضي" ترتجيه الاحتفاظ به يومين أو ثلاثة!

وكم يستهدف العريس في هذه الحال لتنكيت رفاقه ومعارفه وكم يلذ لهم أن يتحاملوا عليه، ويرددوا أمامه مختلف الأساطير التي تناسب هذا "الحادث الطارئ"!

تبريز العريس

واليوم الأول في بيت العريس يحمل اسم "الصباح" وتقضى العادة فيه أن يبعث أهلها بطعام الإفطار الذي يتألف من رؤوس الخرفان المبخرة، والمحلب: الأرز بالحليب واللوز.

وفي أصيل هذا اليوم- كالأيام التالية- تبرز العروس للنظارة أن خبر العروس ينتشر كالبرق في الأحياء القريبة والبعيدة، ولذلك فإن المتفرجات تتواعد لرؤية العروس بارزة ولو أنهن غير مدعوات! تأخذ العروس مكانها على عرش من المقاعد ينصب لها وسط البيت، وعلاوة على ثيابها العادية، فإنها تغلف من الرأس إلى القدم بمختلف معالم الزينة، فأولا تجعل على كاهليها قطعة من الثوب المزخرف: "قصبة" [٧٣] بركاضو "تنزل إلى الأرض، وفوق قصبة بركاضو الطويلة تجعل "قصبة الخريب [٧٤] التي تكون أقصر من الأولى، وبعد هذين يأتي دور "رشقات الصمة" وهي وشاح مخطط يطوى على اثنين: أحد الطرفين أطول من الآخر، يجعل جانب منه على مؤخرة الرأس، والطائفة الكبرى منه تحيط بالصدر في شكل رداء، ولهذه الصمة أكمام مفرطة في الطول يغطي جانب منها يديها بينما يلصق الباقي بالشوك في "المطربات" والمخدات التي وراء ظهرها لكي يتخذ المنظر شكله البديع.. هذا من حيث الثياب، أما عن الحلي الذي يكون على النحر: فيتألف من "المداج [٧٥] " و"اللبة [٧٦] يتخذ طرف الثوب السميك، يسمى "البسيطة" تمر بواسطة قطعة مستطيلة من وبر أخضر، وتخيط على الجانب الأعلى من البسيطة عقود اللؤلؤ على شكل يحبث تقع الحجرة الخضراء التي في وسطه على هذا الوبر، وتحت المداج تكون "اللبة" التي تتألف من طوابع ذهبية مصنوعة تتوسطها أحجار كريمة، أم زينة الرأس فعلاوة على "السلتة" ينزل على كل من صدغيها خيطان

مفتولان: أحدهما أبيض والآخر أخضر إلى ركبتها، وفوق السلتة يوضع خيط منتظم باللؤلؤ والحجر الأخضر، ويعمد بعد هذا إلى تعليق "النواصي"، وهي عبارة عن قطع مستطيلة من الثوب مطروزة الطرف الأدنى بالذهب، بينما الطرف الأعلى الذي يلي الرأس تنشب به "زراير من اللآلئ والجواهر، على كل جانب تسدل النواصي والزراير، وفوق هذا كله يوضع تاج ذو مصاريع من الذهب منبتة بالأحجار.

ومن المناسب أن نشير هنا إلى أن النكافة قد تكون مشرفة على عدة أعراس في أيام واحدة، ولأجل أن تعد لهذه العروس ولتلك ما يلزم لابد أن تتوفر على وسائل سريعة لاستجلاب الملابس والحلي من تلك لهذه ومن هذه لتلك.. وهذا دور "الجراية" (٧٧)" ولا نودع هذا الصباح دون أن نشير إلى أن العروس لا تنطق طيلة هذه الأيام، كما ولا تقفل طوقها تفاؤلا بأن لا يضيق صدرها في الحياة القابلة، ومن العادة أيضا أن العريس هو أيضا لا يجعل حزاما، ومن الطريف أن نعرف أن في أبرز ما تصحبه الزوجة لزوجها "تكة (٧٨)" مطرزة الأطراف تتولى هي وضعها في سرواله كرمز لحصانته وعفافه!

الصبوحي

والغداة الموالية لليوم الأول باسم "الصبوحي" وغالبا ما يكون الاتصال بين الزوجين قد تم هذا اليوم، لذلك تكون فرصة لتقديم الزوج الهدايا التي يكون عقد الصداق قد نص عليها، والتي تكون مفاجئة دون سابق إعلام..

وصباح هذا اليوم يبعث أهل العروس لدار العريس بفطور يتألف من "المحنشة[٧٩]" والكعب المفند.. وفي هذا اليوم تبرز العروس وقد وضعت بجانبها هدايا الصبوحي لتكون على مرأى من المتفرجات كما توضع "البوسات" أي الهدايا التي تقدم بها كل من الحمو والحماة العمات واللوايس[٨٠] من كل الذين تلقوا منها صباح هذا اليوم هدايا أو تفاكر. وكم يكون لهذه الهدايا من أصداء.. الكل يعود ليحكي.. ومن هنا تؤخذ فكرة عن مقدار تعلق الأسرتين بعضهما بعضا، ويستمر الحال على نفس ما تم في اليوم الماضى في نهار ثاني الصبوحي، وثالثه ورابعه وخامسه.. وتعوض العروس أصيل كل يوم بينما يتردد العريس على دار إيسلان، وتتوالى أفواج الزائرات.

يوم حل الرأس

ويمتاز اليوم السادس بأنه يوم حل السلتة التي كانت ضفرت يوم القوالب الكبار، وذلك استعدادا لممارستها الحياة العادية، وتتم بهذه المناسبة حفلة أخرى ولكنها محدودة، تجلس العروس على عتبة البيت وظهرها لفناء المنزل ويأتى زوجها ليدشن عملية الحل، ويجعل على جبين زوجته قطعة من النقود تستأثر بها النكافة التي تباشر تتميم العمل، وهنا تظهر العروس للمدعوات لأول مرة بدون أصباغ ولا مراهم وهو ما يقصدونه بالزين المسوس[٨١]! وتصل في هذا اليوم ثلاث موائد إحداها مليئة بالبيض المسلوق

والثانية بالقراشيل [٨٢] والثالثة باللوز المقلي.. وهي بمنزلة زاد اللائي يصحبن العروس للحمام في مساء هذا اليوم، وتكون هذه مناسبة أيضا لوصول هدايا الحمام من لدن والدها، وهي عبارة عن سطل من معدن الصفر ومحكة ومشط عاج والكيس الفوط والغاسول.

نهار الغسيل

واليوم السابع هو اليوم الذي تصبح فيه من غسيلها الأول في هذا اليوم– ولأول مرة– تتناول طعام الإفطار مع أحباب الزوج وفيه تظهر بالحنطور"٨٣" وتختفي ثلاث مرات لترتدي في كل مرة لباسا خاصا، وفيما بعد العصر تبرز على العادة يد أنها تتحرر من بعض التكاليف التي كانت مقيدة بها إلى الأمس القريب، فهي تفتح عيونها وتبتسم لأحبابها.

اليوم الثامن

وفي صباح اليوم الثامن تقوم بعجن الخبز لأول مرة في بيت زوجها، كما تقوم بتحضير وجبة الغداء التي تكون ولابد سمكا لأن في إعداده دليلا على أن العروس خبيرة بشئون البيت، وتظهر ببذلة المطبخ أي بفوطة خاصة وقباقب منقوشة، وتسود "الرمزية" هذه "الاختبارات" كما تقابل بالتثقيل والزغاريد، وبخور "سرغينة" تلازم دائما بيت العرائس لأنها بما تضمه من عقاقير تدفع العين فيما يعتقدون.. وقد تبرز أيضا في هذا المساء.

تطييح الفرش

وفي اليوم التاسع- فيما إذا لم يكن يوم جمعة- "يطيح" الفرش، حيث يرجع البيت إلى حالته العادية، وتودع النكافات المنزل وقد صحبن معهن ما كن قد استعرنه أو اكترينه.. وهنا تصبح العروس متخلصة من كل التكاليف وتمسى وقد أخذت ترتب بيتها وشئونها.

بوسة اليد

وآخر حفلة تجرى بمناسبة الاقتران هي الحفلة التي يدعو إليها الزوج سائر أقربائه وأقربائها من أجل أن يقدم لهم عروسه.. وقد تضم المائدة ناسا أجانب لكنهم يستأذنون على أثر تناول الشاي، وعندما لم يبق في البيت سوى المحارم.. ومن أراد الزوج أن يظهر له زوجته.. إذ ذاك تطلع عليه "السلطانة" في حلة زاهية تتقدم بتؤدة في استحياء لتدخل الحجرة مسلمة مبتدئة باليمين.. وجل من ينالهم هذا السلام يكونون قد استعدوا لتقديم هدية أو منحة.. وبعد أن تأتي على آخرهم تجلس وسط البيت مطرقة الرأس غاضة الطرف ترشح عرقا من كث الحياء.. وبعد لحظة يتقدم الأكبر سنا في البيت ليقرأ "الفاتحة" ويدعو بالذرية الصالحة والتثمير والتعمير.. وهكذا ينصرف الناس.. وليس من شيء ينتظرونه إلا المولود الجديد.

الليلة المسروقة..

وقد عرف المغرب من قديم أن الفتاة لا يليق لها أن تخرج من بيتها أبدا.. وشاع أن البنت لها خرجتان في العمر من البيت "مرة إلى بيت زوجها ومرة إلى قبرها! ولذلك فهي تعيش دوما بين أحضان والديها، ولكن التقاليد تسمح بأن تقتص ليلة من الليالي الجديدة لتقضيها بين والديها أولا للاستئناس بها، وثانية من أجل استفسارها في اطمئنان عن بيتها الجديد وعن شعورها نحو قرينها. ثم لتقديم النصيحة الضرورية لها.. وتسمى هذه الليلة "الليلة المسروقة" وتكون مناسبة ليبعث الزوج صباح اليوم الموالي بنفقة اليوم والفاكهة.

وبعد.. فهل تحدثت كما أريد ، وكما ينبغي أن أتحدث؟ أعتقد أن كل ما قلته لا يعدو أن يكون ملخصا مختصرا لكل ما نريد.. فإن كلا من عادات القول في هذه المناسبة، والمآدب كذلك، واللباس أيضا كل من ذلك يحتاج إلى تفصيل أطول وأعمق، أن هناك عشرات من القصص الخاصة بالأعراس: الأزواج ونوادرهم، والآباء والأمهات والحموات.. وأن هناك عشرات من البذلات الخاصة بكل يوم من الأيام وبكل صبح وبكل مساء. وأنواع من الأطعمة التي تقدم في هذا اليوم ولكنه من العيب أن تقدم في اليوم الذي يليه، أن "أعراس فاس" تكون بذاتها متحفا عظيما وطريفا ولكثر ما كانت الأعراس مرهقة من حيث العادات والتقاليد، قالت الحكمة العامية: "اللي

قالك العرس ساهل يسقي له غير الماء!" عسى أن نتوفق لإبراز هذه الآداب الشعبية على الوجه الذي يرضى، فما أحب إلى المرء من أن يستقصي عادات كانت وليدة حاجات.. ووليدة شعور مشترك، وبالتالي حصيلة تجارب سليمة وحكيمة وبعد كل هذا .. فكيف يعيش ما تبقى من هذه العادات اليوم؟ أنه يعيش في صراع متلاحق مع التيار الجديد الذي زهد في تقاليد الأمس، وتاق إلى تقاليد العصر، لكن الناس بين هذا وذلك في حيرة، في حيرة ملموسة ولهذا فقد تشاهد في الحفلات اليوم تناقضات، وقد تلاحظ فيها "قلقا" باديا سببته قيود الماضي، والخوف من فجور الحاضر.. فعسى أن يهتدي المعنيون بالأمر للاقتباس من مباهج الأمس ومحاسن اليوم.. فيزيحوا هذا "القلق" الذي يسود حفلاتنا اليوم وعساهم لا يفرطون، ولا يفرطون كذلك!

عبد الهادي التازي

مفردات مشروحة

١) العزارى: هو العزب الذي لم يتزوج بعد.

٢) الخطابة: هي التي تقوم بالخطبة.

٣) الكبة: هي الهودج التي تزف فيه العروس لزوجها.

٤) لالة: لفظ لتكريم السيدات وغالبا ما يستعمل للشريفات.

٥) العاتق: الفتاة التي لم تتزوج بعد.

٦) الدلالة: التي تقوم بسمسرة الثياب مثلا.

٧) كمالة العطية: الاتفاق النهائي بين الأسرتين على الزواج.

٨) المشيخة: تعني ثلة من فضلاء الناس.

٩) الفاتحة: تعني يوم مباركة خطوات الخطبة.

١٠) الحجام: هو الحلاق، ويجمع على "الحجامة".

١١) جبان: حلوى ذات لون أبيض تحاكي شكل الجبن.

١٢) التفكرة: ما يتفكر به العريس عروسه.

١٣) دفع النقدة: أداء نقود الصداق.

١٤) البسطيلة: أكلة تتطلب إعدادا دقيقا وهي عبارة تقريبا عن رغيف مستدير كبير الحجم يتألف من أوراق شفافة من الدقيق، محشوة "في جملة ما تحشى به" بفراخ الحمام، واللوز إلخ.

١٥) التفايا: اللحم باللوز المقلي والبيض.

١٦) الرغيفة: حلوى في شكل هرم صغير متوج بزبد.

١٧) البرايوات: حلوى في شكل مثلث محشوة باللوز.

١٨) الشوار: جهاز البيت.

١٩) القفة: في الأصل ظرف من الدوم.

٢٠) الكرفا: الوخش.

٢١) السداري: الفراش الطويل الذي يمتد في واجهة البيت ويجمع على السداد.

٢٢) المطربة: هى المرتبة، فراش نصف السداري تقريبا "بفتح الطاء".

٢٣) كليسة: مقعد للجلوس نصف المرتبة تقريبا.

٢٤) سطارم: وسائد مستديرة مفردها السطرمية.

٢٥) مساند: وسائد مستطيلة لفراش النوم.

٢٦) خوامي: ستائر باب البيت.

٢٧) تلامط: غلافات المرتبات.

٢٨) اللحوف: فراش خفيف يجعل فوق التلامط.

٢٩) قرقطون: فاصل خشبي بين الأرض والمرتبة.

٣٠) حايطي: ثوب مزخرف يعلق على الجدار للزينة ووقاية من البرد.

٣١) حراقس: قطعة من الثوب لتغطية القرقطون.

٣٢) القفطان: القباء الذي يلبس فوق القميص.

٣٣)الفوقية: مايلبس من ثوب شفاف غالبا فوق الفقطان.

٣٤) الشربيل الصم: الشربيل يعنى حذاء المرأة، والصم: المطرز بالصقلى.

٣٥) التخمال: خيوط مضفورة تشمر به العروس أكمامها.

٣٦) المحرمة: ثوب تستعمله المرأة كفوط.

٣٧) الدار: عندما تطلق الدار في العرف المغربي فمعناها المنزل بسائر حجراته وغرفاته.

٣٨) الآليين: هم بالذات الجوقة الخاصة بالطرب الأندلسي، هكذا يسمون.
٣٩) النكافات: أصلها النقافات: ذوات التدبير والنظر، وهن في الأصل إماء، والعرس بدونهن لا يستقيم، فهن اللائي يكترين الحلي والأثاث اللازم، وهن اللائي يسهرن على تنظيم العرس، ولهن نظام خاص بهن.
٤٠) البيت: البيت في الاصطلاح المغربي حجرة من الدار.
٤١) القيطان: حبل دقيق من حرير.
٤٢) زرازية: طائفة من النقالين المؤتمنين يعرفون أيضا تحت اسم "أولاد سيدي عيسى"
٤٣) الخليع: قديد يصبره أهل فاس بادام.
٤٤)أتاي: مشروب يحضر بالشاي الأخضر والنعناع.
٤٥) التثقيل: ترديد عبارات خاصة من قبل النكافة بجانب العروس تجاب بزغاريد المستعات وأحيانا، تكون وسيلة من النكافات من أجل استجداء أريحية سيدي فلان أو لالة فلانة ويبدأ هكذا: السلام على رسول الله، لا جاه إلا جاه سيدنا محمد.. الله مع الجاه العالي. الله مع سيدي فلان.. أو لالة فلانة.. إلخ.
٤٦)سرغينة: جذور نبات تيبس ويضاف إليها عقاقير تصلح كبخور.
٤٧) الصقلي: الحلي من ذهب "المقصب".
٤٨) الرواقات: يراد بها أزر مزخرفة مقوسة تعلق أعلى البيت.
٤٩) الدخشوشة: خدر العروسين الذي "يخشان" فيه وحدهما.
٥٠) التقبيب: أي صب الأقباب من الماء على العروس.
٥١) الطيابات: اللاتي يقمن بخدمة النساء في الحمامات البلدية.
٥٢) مكية: التي وردت من مكة بمناسبة حج، وتقصد لأجل التبرك.
٥٣) القوالب: جمع قالبة، ويقصد بها الليالي التي تشعر فيها الفتاة بخروجها من حياة إلى حياة.

٥٤) إيسلان: لفظ بربري جمع لإيسلي بمعنى العريس، ويقصد بدار إيسلان المكان الذي يختص بأصدقاء العروس أو العريس.

٥٥) القطاعة: هي "دخشوشة" العروس في بيت والديها.

٥٦) الحناية: التي تقوم بتزويق أطراف العروس بالحناء.

٥٧)التواتية: الحناء التي تجلب من توات ناحية الصحراء وتفضل على الحناء التي ترد من ناحية دكالة.

٥٨) المزوارات: النقيبات.

٥٩) السلتة: ضفيرة شعر مقدم الرأس.

٦٠) زنجاري: يميل للون السماء، وهذا "نقط العروس".

٦١) الحضارات: جوقة المنشدات.

٦٢) التعشيق: تبدأ النكافات بهذه العبارات: "العاشقين في النبي صلوا عليه، تربح يا من صلى على رسول الله . ها! ها تبارك الله عليك الالة! ها! زين الشرفاء! ها زين العرب! ها زين مولاي إدريس! ها الزين المسوس! ها حجوب الله عليك يا قمر العرايس!.. "فإذا كانت غير شريفة سمعنا إطراءات بالعائلة التي تنتمي إليها.. كما أنها إذا كانت سمراء نحيفة سمعنا عن أوصاف تليق بالسمر والنحافة: "ها العنبر في القراطيس! العسل مزلكة في الإبرة!" إلخ.

٦٣) الغرامة: يقصد بها التبرع بقدر من المال.

٦٤) العراضة: التي تقوم بدعوة النساء وتسمى الدعوة "العرضة".

٦٥) الشلية: مقعد مرتفع واللفظ أصله إسباني.

٦٦) القب: قب الجلباب هو الجزء منها الذي يغطي الرأس.

٦٧) يقيم: أي يعد الشاي.

٦٨) دواز: ما يقدم مع الشاي من الحلويات.

٦٩) الحائك: الأزار الذي كانت المرأة المغربية تتستر به عند الخروج، وقد عوضته "الجلابة" وتعوض هذه البدلة العصرية.

٧٠) عباها: أي استولى عليها! و"اللويز" عملة ثمينة.

٧١) الصحافة: الذين يحملون الأموات "بفتح الهاء وتشديد الحاء".

٧٢) الكلاسة: معينة للنكافة، تلازم العروس طيلة أيام العرس لتكون في خدمتها ولتكون أيضا على علم مما يجرى.

٧٣) بركاضو: اسم أجنبي وهو رداء البركاضو أي المحامي.. والقصبة لأنه رداء مقصب.

٧٤)قصبة الخريب: الخريب بروكار تشتهر فاس به.

٧٥) المداج: العقود من الجوهر.

٧٦) اللبة: موضع القلادة من الصدر.

٧٧) الجراية: مساعدة للكافة وهي رسول سريع لإحضار ما يلزم.

٧٨) التكة: حزام السروال.

٧٩) المحنشة: نوع من الحلوى يشبه الكنافة الشرقية.

٨٠) اللوايس: أخوات العريس.

٨١) القراشيل: خبز صغير محلى معجون بالسمسم وحب "النافع".

٨٢) الحنطور: تحلية خاصة بالرأس.

تعابير مغربية

(إذا شفت العزرى اعواج أعرفه حب الزواج)

إذا رأيت العزب قد عرد فخذ ذلك دليلا على أنه يريد التزوج.

(زوج ولدك ما حد عينه مغمضة)

زوج ولدك قبل أن يفتح عيونه على الشرور

(الحرث بكري والزواج بكري)

أحرث مبكرا، وتزوج مبكرا.

(إذا ما جمع الصداق من ماله ما يعرفش بقيمة العروس)

من لم يجمع الصداق من كده لا يقدر قدر العروس

(ولد عمها يخرجها من الكبة)

ابن عم العروس في استطاعته أن يخرجها من هودج خطيبها الآخر.

(إذا كانوا مزوجين في السما تيعطي رب للخطابة العمي)

إذا كان الله قد كتب لهؤلاء التزوج فإنه يسلط العمي على الخطابة

(هون الصداق يهون الطلاق)

اعمد إلى رخيص الصداق حتى لا تجد غضاضة في الطلاق

(فأين ما كانت شي كرفا تتهدى للشرفا)

كلما كانت هناك وحش أهديت للشريف !

(عاتق باب الكيسة تطل على المريض وتهني النفيسة)

فتاة باب عجيسة هي التي تعود المريضة وتهنئ النفساء

(كل شي بكا ومشى)

يعني كلهن بكين ولكنهن في الأخير مشين !

(اللي قالك العرس ساهل يسقي له غير الماء)

من زعم أن العرس فكلفه فقط بسقي الناس الماء

أهم المصادر العربية

علي الشرفي : مجلة المغرب عدد أبريل ١٩٣٣.

:الحوالة الحبيسة للقرويين بنظارة الأوقاف.

ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمطار وعجائب الأسفار.

أحمد الونشيريسي: المعيار المعرب، والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب "المجلد التاسع"

محمد بخوشة : أدب المغاربة.

محمد بن تاويت : دعوة الحق عدد مايو ١٩٥٨.

أهم المصادر الأجنبية

a) Jean Leon L`Africin: "Description de I`AFrique"- Edition 1956.

b) Rebryend:"Les Amours Marocaines"- 1919.

c) Edward Westermark : "Les Ceremonies du Mariage du Maroc" Traduit de L`Anglais par V. Arain -1912)

d) Doctoteresse Legey: "Essai de Folklire Marocain"- 1926.

e) Jeanne Jouin:"Iconographie de la Marie citadine dans L`Islam Nord- African".

f) J.J. Tclroud: "La Nuit de`Fe`s".

g) Riger Le Tourneau: "Fe`av`ant le protectorat"1947.

h) Z. Guinaudeau: "Fe`s vu par sa Cuisine"- 1942.